التحليل الإبستيمولوجي للظاهرة اللغوية عند ابن سينا

أ/ بوربونة فاطمة الزهراء

جامعة جيجل

توطئة :

يعد ابن سينا من أهم أعلام الحضارة العربية والإسلامية ، فقد انتشرت شهرته حتى أصبح يطلق عليه اسم " الشيخ الرئيس". ثم إن أسلوبه اتسم بالإيجاز والدقة ، مع اعتماده المنهج التجريبي ، هو بهذا يعتبر علما فذا في مجالات الطبيعة والفلسفة والطب ، إلى جانب اهتمامه بالكتابة في مجال الأدب والشعر واللغة ، حتى إنـــه صاغ بعض آرائه اللغوية فأصبحت بمثابة قوانين لسانية ، كما أصبحت فيما بعد مرجعا لمن أراد أن يستفيد منها . وعليه فإننا سنقف لتحليل بعض نصوصه اللغوية لنكشف عن مدى انفتاحه الواسع على الثقافات الأخـــرى ،دون تخليه عن ثقافته الاسلامية ، مع تحليه بالمنهج القائم على الاستدلال والبرهان في طـــروحاته اللسانية ،كما سنكشف عن كيفية تعامله مع محاور اللغة ، وكيف ناسب تحليله لها مع فكره الفلسفي، هل استطاع بهذا أن يحل الإشكال القائم بين اللغة وعلاقتها بالمجتمع ، أم أنها تبقى مجرد تخمينات ووجهات نظر .

التحليل :

حين ينطلق ابن سينا في تحليله للغة ، فهو ينطلق من فلسفة الانسان بحد ذاته ، ذلك أنه يتركب من أمور معقدة فيه ، سواء كانت داخلية أو خارجية . فهو يتناول اللغة ، تناول الفيلسوف الذي ينـظر للأشياء نظـرة شـــاملة انطلاقا من مستعمليها " فجمع بين عمق تفكير البـــاحث العـــقلي ، وبين دراية العالم الممارس للتجربة ، حيث ضمنها العديد من الملاحظات والاكتـــشافات العلمية والتـــجريبية القيمة التي ظل صداها مترددا طيلة العـــصور الوسطى والعـــصور الحديثة ، مما يدفع البـــــاحث إلى استنتاج مذهبا تجريبيا يعلن عن نفسه في مختـلف مؤلفاته ورسائله . ويكـــــشف عن عمقه بـــوضوح حين يتناول موضوعات طبيعية ، وكذلك العلوم النفسانية حين تعالج بأساليب تجريبية فضلا عن علمي الطب والصيدلة" (1) " وربما كان هذا السبب في اهتمام تشومسكي بالدعوة إلى الاستعانة بالفلسفة وعلم النفس ، أن تخصيب البحث اللغوي بهما يساعد بشكل مباشر في

تكوين النـظرية اللغوية القائمة على فهم الطبيعة البشرية فهما علميا دقيقا "(2) يقول ابن سينا : "**إن الانسان قد أوتي قوة حسية ترتسم فيها صور الأمـــور الخارجية ، وتتأدى عنها إلى النفس** ..."(3) فهذه القوة الحسية هي القوة المدركة للأشياء بالفعل ، وهي التي تسمى بظواهر الإدراك التي تعني الأمور التي تحيط بالإنسان مهما كانت طبيعتها . إنه يركز هنا على مبدأ حضور النفس والحس دائما في عملية الارتسام ، ويؤكد عليها خاصة إذا تعلق هذا الارتسام بالعقل والوجود بمراحلها التالية :

1)- ارتسام القوة الحسية بصور الأمور الخارجية .

2)- ارتسام النفس فيها ارتساما ثانيا ثابتا .

3)- ارتسام النفس على أمور تؤديها وهي مرتسمات في الحس ...وهكذا.

إن هذا الترتيب النوعي لمدركات الحس والنفس ناجم عما " ارتبط لدى مؤسسي الفكر اللغوي في الحضارة العربية الاسلامية وهو - مبحث- الدلالة اللـغوية بتصور شامل لأصناف شتى من الدلالات التي تقوم في جوهرها على فكرة الإفضاء إلى حـقائق الأشياء أو المدلولات والمعاني بالاعتماد على أنواع من الأدلة "(4) ، حيث يحتل الدال والمدلول فيهما الصدارة . فالدلالة لا تستغني عنهما في مكاشفة لمدى تطابقهما ، خاصة عندما تربط العلاقة بما يوجد في الأعيان وما يوجد في النفس ، يقول ابن سينا :" **فللأمور وجود في الأعيان ووجود في النفس** "(5) إذ تزداد هذه الفكرة وضوحا عند أصحاب التـــراث العربي والاسلامي الذين أسسوا للـــمتصورات الذهنية المتوقع وجودها في أعيان الأشياء والموجودات , يقول حازم القرطاجني :" **إن المعاني هي الصور الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان فكـل شيء له وجـــود خارج الذهن فإنه إذا أدرك حصلت له صورة في الذهن تطابق لما أدرك منه ، فإذا عبر عن تلك الـــــصورة الذهنية في أفـــــهام السامعين وأذهانهم ، فصار للمعنى وجود آخر من جهة دلالة الألفاظ** "(6)

ومن هنا ندرك أن ابن سينا وغيره قد انطلق من التفسير الذهني، خاصة عند تحليلهم لحقيقة الدلالة بقطبيها " الدال والمدلول" واللفظ والمعنى ذلك أن " الانسان لديه القدرة على التصور الذهني والتي تمثل مشتركا بين جميع البشر ، وهذا التصور يتفق مع الـــــشيء أو يتفق

مع ما يوجد في الأعيان ، فالأشياء هي الأخرى لا تختلف , ولكن الاختلاف يقع بين الألفاظ التي قد تعبر عن معنى واحد في النفس "(7) هذا " وقد توصل علماء اللغة حديثا إلى هذه النتائج التي سبق إليها علماؤنا فهذا دي سوسير رائد علم اللغة الحديث يربط بين اللغة والجانب النفسي ، كما أنه يربط بين التصور الذهني والصوت اللفظي الذي يثير الذهن نحو الشيء فيتصوره ، ولكن ديسوسير أهمل الأعيان ولم يلتفت إلى دراستها ، أي تناول جانبين فقط وهما اللفظ الذي يرتبط بالسمع والمعنى الذي يرتبط بالتصور الذهني والجانب النفسي ، ورأى أن هذين العنصرين (النصور الذهني والصورة الأكوستيكية) ملتحمان التحاما شديدا ، يستدعي أحدهما وجود الآخر"(8)

ومن كل هذا ندرك أن المنهج العقلي هو الذي قاد ابن سينا ودي سوسير إلى اعتماد المتصور الذهني أساسا لإدراك حقيقة دلالة الألفاظ وما يمكن أن تتيحه من تفتقات المعنى وبطريقة انسيابية ومنسجمة تتناغم مع المفردات والألفاظ التي تعتبر قوالب لهذا المعنى ، كما ندرك اعتمادها لمسويات الأداء الكلامي .وربما هذا سيوصلنا إلى فكرة التلاحم والتعاضد الموجود بين ما يسمى بالفكر واللغة ، إذ أن " وصول الشعور إلى لمعنى الأصلي المجرد عن اللغة أمر غير ممكن ، لأن العمليات الذهنية الموصلة إليه تستحيل ، " فالكلمة تجسد صورة المدلول وتمنحه شكلا لغويا ، والمعروف أن الاحساسات والصور التي يوفرها لنا الإدراك الحسي تنجم عن الأثر المباشر الذي يلقيه في حواسنا الأشياء والأحداث وخصائصها"(9) ويبدو أنه بالنظر إلى المنحى الفكري الذي تحرك –ابن سينا – وفقا له ، يتبين أن الرجل واجه إشكالية تبدو معقدة ، فهو بين كلام لفظي ومعنى نفسي ومتصور ذهني ..

1)– جدل اللفظ والمعنى :

"هناك عملية تلازم تبلورت في الدال والمدلول على محور الاستبدال ، وقد عبر عنها ابن سينا بقوله :" **ومعنى دلالة اللفظ أن يكون إذا ارتسم في الخيال مسموع اسم ارتسم في النفس معنى** ..."(10) والعكس وارد ، "كلما حضر المدلول بالبال صحبه الدال ، إلا أن عملية التلازم تبلغ أقصى درجات التفاعل في محور التوزيع ، فيعمد الذهن إلى تنظيم الوحدات الدالة في لحمة متكاملة لتحقيق غايات الاتصال أو التعبير عموما ....مما يطبع

العبارة بطابع التفرد الدلالي والتوحد المعنوي "(11) ، فيكون بذلك قد ألح على فكرة التطابق المنبثق من آليـــات التواصل الاجتماعي بين البشر عن طريق هذا التطايق ، وضرورته الحتمية في الإفصاح عن المعنى باللفظ أو التعبير باللفظ عن المعنى من غير لبس أو غموض ، ومع هذا الذي يقول به ابن سينا يترسخ مبدأ حضور اللغة مـع كل ممارسة فكرية تبتغي إجراء عمليا بقصد الإبلاغ أو ممارسة باطنية تقوم على التأمل وقراءة الذات داخليا ، إذ مادام أن الاكتساب اللغوي يقوم على قاعدتي الارتسام المزدوج للمـــدلول والدال في آن واحـــد يكون استحضار لأحدهما رهنا بحضور الآخر ، ..... ومن هنا يكون لكل فعل واع يقصد إحـــداث ترتيب داخلي في معنى نفسي لايتيسر قيامه إلا باللفظ " (12)

2)– جدل اللغة والمجتمع :

إن الحديث عن اللغة وضرورة وجودها ، هو الحديث عن وجود مشاركين في عملية الكلام , وهاهو يقر بحتمية هذا الوجود بقوله : " **ولما كانت الطبيعة الانسانية محتاجة إلى المـحاورة لاضطرارها إلـــى المشاركة والمجاورة ، انبعثت إل اختراع شيء تتوصل به إلى ذلك .....فـــمالت الطبيعة إلى استعمال الصوت** ..."(13) " فيفهم من كلامه أن الألفاظ التي اصطلح عليها الناس في تواصلهم اليومي تخضع لتصرف مستـــخدميها ، وتتعرض دلالتها لعوامل التغيير ، كما يؤكد أن المفردات التي يستخدمها لمجتمع تعد في حكم الاصطلاح ، لأن المجتمع يتحكم في دلالتها ، كما أنه لايدفع رأيا من الآراء التي تناولت نشأة اللغة ، فـــسواء أكانت إلهاما إلهيا أو محاكاة للأصوات أو اصطلاحا أو غير ذلك ، لمعنى يتواطؤ عليه المجـــتمع أو تتفق على دلالة اللـــفظ جمـــاعة اللغة"(14) ، ولأن هذا الاتـــفاق له غاية كبرى وأشمل فإن " هـــذه الرؤية – إذن– تحمـــل محمل أن الانسان لايستعمل العبارات اللغوية إلا بدافع الحاجة التواصلية ، فالدلالة على ما في النفس تولد الحاجة إلى القول ، ومن الحاجة إلى القول تتولد العبارة اللغوية أي أن الانسان لايتكلم إلا لأن في نفسه حاجة إلى القول تقتضي الدلالة على ما في نفسه ، والإفصاح عما بداخله " (15)

وإذ لم يقف ابن سينا في البحث عن اللغة ووظيفتها الاجتماعية ، بل في موضع آخر من مـــواضيع تفكيره وفلسفته التي قد يتردد صداها عند علماء الاجتماع , وعلماء النفس

، هو إطلاقه لمصطلح "الحكمة " بأنواعه وأجناسه وطرائق عيشه , وأسلوب حياته فهو يسم كتابه بعنوانها وهو " عيون الحكمة " ومن دقة جـدله يعد تقسيمه للحكمة ، أنه يقرنها بالاجتماع البشري وذلك بقوله : " **والحكمة المدنية – باعتـــبارها قسم من الأقسام– فائدتها أن تعلم كيفية المشاركة التي تقع فيها بين أشخاص الناس ليتعاونوا على مصالح الأبدان ومصالح بقاء نوع الانسان** "(16)

هذا المستوى العالي في المجتمع المدني ، ومشاركة بعضه بعضا في الحاجات والأغراض لينبئ عن عالمية المـفاهيم الوجودية وأسسها التي قامت عليها ، فارتكزت على أركانها ولبست لباس الأصول والعادات والتقاليد التي تأصلت في المجتمع ، بمنظور يتفق مع سنن الله في الكون والخلق ، فانصهرت معها – كذلك – علوم هذا الكون ، وصارت بمثابة المركز لهذا الانصهار ونقطة الالتقاء فيما بينها .

وإذ لايخفى على أحد أنه لايوجد علم من العلوم إلا وله علاقة بعلوم أخرى ، ففي ميدان العلوم الانسانية بصفة عامة ، واللغوية بصفة خاصة ، نجد أواصر القربى ظاهرة تربط بين اللغة والفكر حينا ، وبين اللغة والمجتمع حينـا ، وبين اللغة والمنطق أحيان أخرى وهكذا .

بما هذا هو المغزى من تأليف ابن سينا لكتبه الكثيرة في هذا المجال ، وكأنه يريدنا أن نصل إلى ما وصل إليه من قناعات هي في صميم فلسفته العميقة ليقول لنا : ما وجد هذا الانسان إلا ليتكلم وهو لايتـــــكلم إلا باللغة ، واللغة مرتبطة بالعقل والتفكير ، والتفكير لايكون إلا بتصور المفاهيم " فطالما أن اللغة هي المظهر الخارجي للفكر وطالما أن الفكر بوصفه عملية يمكن التعبير عنها بالفاظ اللغة ، ونقل أو توصيل هذا التعبير إلى الآخرين بنفـــس الكيفية ، وطالما أن المنطق هو الذي يدرس الفكر من حيث قوالبه وصوره المختلفة ، إذن يـــكون من الطبيعي ارتباط اللغة بالمنطق "(17)

إن هذه العلاقة الجدلية بين لغة تحمل لفظا ومعنى ، وبين عقل يحمل منطقا وتفكيرا ، تؤسس لأسس وجـــودية واجتماعية تنطلق من النفس البشرية ، وهو يؤكد لنا هذا بقوله : " **ومن الحيوان الانسان يختص بنفس إنسانية نفسا ناطقة ، إذ كان أشهر أفعالها وأول آثارها الخاصة بها النطق ، وليس يعني بقولهم : ناطقة أنها مبدأ المنطق فقط ، بل جعل هذا**

اللفظ لقبا لذاته . ولها خواص : منها ماهو من باب الإدراك , ومنها ما هو من باب الفعل ، ومنها ماهو من الانفعال "(18)

إن هذه الثلاثية التي تميز الانسان عن غيره من الكائنات ، عقلا وتفكيرا ، نطقا ومنطقا ، تحيـــط بها اللغة فلا تكون إلا تابعة لها – أي للمنطق والفكر والنفس – في أعلى مراتبها وهي مرتبة الادراك وتصور الأشياء ، تمايـزا يعرفنا بحقيقة الانسان الذي يختلف فعلا عن عالم الحيوان والجماد في قدرته الخارقة عـــــلى التواصل الاجتماعي وقدرته على التخيل و" حصر الأمور التي تجعل القول مخيلا ، ومن تلك الأمور " المسموع من القول " ومن ذلك المسموع اللفظ على وجه التحديد "(19) ، ذلك أن الخيال الذي يرتسم بمجرد سماع الصوت (أو الاسم) , هو الذي يدخل في صلب هذه العملية الاتصالية والاجتماعية ، لوجود أطراف تؤثر وتتأثر بالـــــكلام المسموع وهو الكلام المخيل باعتباره " الكلام الذي تذعن له النفس ، فتنبسط عن أمور ، وتنقبض عن أمور من غير روية وفكر واختيار "(20)

الخاتمة :

لقد أتاحت ثنائية اللفظ والمعنى للباحثين مساحات واسعة للحديث عن حقيقتها وخباياها، مع ترسيخ لفكرة التواضع والاصطلاح للغة منذ نشأتها ، وخاصة في التراث العربي الاسلامي ، سواء كانت الألفاظ موضوعة عند إرادة الصور الذهنية ، أي الصورة التي تصورها الواضع في ذهنه عند إرادة الوضع ، أم بـإزاء أصوات الكـــلام المسموع .

ولعلها العلاقة التي أتاحت لابن سينا أن ينظر في شأن هذه اللغة مع مدى ارتباطها بالفكر من جهة ، وبالمجتمع من جهة أخرى ، فكان من نتـــائج أبحاثه أنه أقر بأن اللغـــة ما تركت ولا نهضت إلا في ظـــل المجتمع ، وهي لاتنفصل عنه ، ذلك أن تطورها مرهون بتطور الثاني .

وعليه فإن دراساته اللغوية كانت تتسم بالشمولية ، إذ أنه ما يدرس قضية من قضاياها إلا ويربطها بالنفس البشرية ، فردا وجماعة ، وما يقر بحكم من أحكامها إلا ولهذا الانسان الاجتماعي بطبعه دخل في هذا الحـــكم فيؤثر فيه ويتأثر به . كما أنه يعترف بحاجة الانسان للتواصل اللغوي حاجته للماء والطعام والهواء .

وفي الأخير نستطيع القول إن ابن سينا لديه القـدرة على استيعاب اللـــغة ووضع مصطلحاتها ومفاهيمها ضمن دورتها التكميلية المنتجة والمعبرة عن كل ضرورات الحياة العملية النافعة , ولهذا فإننا نلمس هذه القدرة وهذه القوة إلى مدى استيعابه لعلوم جمة تكمل هذه اللغة ' وما على القارئ الواعي سوى استجلاء واستكشاف هذه المعاني عبر التاريخ وعبر العصور ففي استجلائها وتحليلها إعادة بناء هذا التراث .

الهوامش:

1. مجلة الحكمة ' مقال : المنهج التجريبي عند ابن سينا ' فتيحة زرداوي , مؤسسة الحكمة للنشر والتوزيع ' الجزائر ' ع 6 ' س3 ' (2011م) , ص 13 .
2. قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني ' محمد عبدالمطلب ' الشركة المصرية للنشر ' لونجمان ' ط 1 (1995م) ' ص55.
3. كتاب العبارة من الشفاء ' أبوعلي بن سينا ' ت : محمد الخضري ' الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ' ط 1970 ' ص1- 2 .
4. اللفظ والمعنى في التفكير النقدي عند العرب ' الأخضر جمعي ' دراسة ' ص1-2.
5. كتاب العبارة ' م س ' ص 1-2
6. أنظر : المنهاج ' لحازم القرطاجني ' ص18- 19.
7. الدلالة اللفظية ' محمود عكاشة ' مكتبة الأنجلو المصرية ' القاهرة ' ص 24.
8. المرجع نفسه ' ص 25.
9. الفكر الفلسفي العربي المعاصر (إشكالية التأويل) ' شبر الفقيه ' دار البحار ' بيروت' ط1 (2009م) ' ص 280.
10. كتاب العبارة ' م س ' ص4.
11. اللفظ والمعنى في التفكير النقدي عند العرب ' م س ' ص 2- 3.
12. م ن ' ص 3.
13. كتاب العبارة ' م س ' ص1-2.
14. الدلالة اللفظية ' م س ' ص 33- 34.

15. التداولية عند العرب ' دراسة تداولية لأفعال الظاهرة الكلامية في التراث اللساني العربي ' مسعود صحراوي ' دار الطليعة للطباعة والنشر ' بيروت ' ط 1 (2005م)' ص 89.
16. عيون الحكمة ' ابن سينا ' ت: عبد الرحمان بدوي ' دار القلم ' الكويت ' ص 39 . 17)
17. مجلة حوليات كلية الآداب ' مقال :" مفهوم المعنى ' دراسة تحليلية " ' عزمي عبدالسلام ' الحولية السادسة ' الرسالة 31' الكويت ' ص 20.
18. عيون الحكمة ' م س ' ص 40.
19. قضية اللفظ والمعنى ونظرية الشعر عند العرب ' من الأصول إلى القرن 7هـ ' أحمد الودرني ' دارالغرب الاسلامي ' بيروت ط1 (2004م) ' ص 995.
20. المرجع نفسه ' ص 1008